

## الأنثروبولوجيا والتحليل الأدبي

د. ماري جُوزيه غَالِيَفَات

ترجمة: د. محمد رضوان مسر

إنه بالإمكان أن نعيد النظر بالتحليل الأدبي المتأثر بعلم التحليل النفسي، وأن نكمّله على ضوء الأنثروبولوجيا الثقافية، فعلم النفس التحليلي الفرويدي يظهر من خلال نظرية عقدة أوديب (والعقد التي ألحقت بها كعقدة ايليكتر وأوريسست وهملت) بأنه قادر على أن يعطي تفسيراً مجزئاً، مفتاحاً حقيقياً للقضية العلم نفسية في أي مؤلف أدبي، ولكن اجراء تحليل معمق يكشف أحياناً عدم كفاية المرسومة التحليلية النفسية التي عرضها فرويد.

ففي قصة بيل - استبدال: «الأحمر والأسود» مثلاً، لا يقيم علم التحليل النفسي وزناً إلا للاحية محددة من لعبة الأشخاص. فالمثلث الأوديب يظهر فيها بشكل لا يناع، ولكنه لا يشمل مجمل العلاقات القائمة بين الأشخاص. السيدة رينال، ولية أمر ومولاة البطل جوليان سوريل، تجسد في هذه القصة صورة الأم المشتهاة والمجرمة؛ والصورة المتناقضة للأب، الوصي والخاصي. تظهر فيها من خلال سمات عدة أشخاص: الأب سوريل هو الأب المخيف والمبغوض، والسيد رينال هو في الوقت نفسه الوصي والمنافس، والكاهن بيرار هو في آن واحد الضمير الأخلاقي (أو بلغة علم التحليل النفسي، هو الأنا الأعلى)، والأب المحب. وبهذا المعنى تظهر قصة «الأحمر والأسود» قصة يمكن تحليلها تحليلاً علم نفسي بسهولة.

غير أنه توجد أوجه عديدة لا يطالها التفسير الفرويدي. فالتحليل العلم اجتماعي - التاريخي قد أدخل هو بدوره أيضاً في هذا المجال: البطل جوليان سوريل هو رجل عامي من طبقة العمال اليدويين يحاول أن يدخل في حلقة الطبقات ذات الامتيازات. طبقات البرجوازيين والأشراف؛ وهو إن عزم على الانخراط في الحياة الكنسية، أن يلبس «الأسود». فذلك من أجل الارتقاء في السلم الاجتماعي والانغماس في عالم الأرستقراطيين والبرجوازيين الذين كانت لهم كل القوة في فرنسا حوالى سنة 1830، في عهد استرجاع العرش وعهد الملكية في

تموز، في ظل آخر ملوك فرنسا. شارل العاشر ولويس فيليب الأول. وخطاب جوليان سوريل الأخير إلى حكامه قبل الحكم عليه بالموت وتنفيذ الحكم، يترجم فعلاً وجهة نظر الصراع الطبقي والتحليل العلم إجتماعي التاريخي يمكن بهذا المعنى أن يكون مرشداً لنا. فهل يجب فقط أن نضمه إلى التحليل الذي هو من نوع التحليل العلم نفسي؟

هنالك خطوة تمهيدية تستلهم الأنثروبولوجيا الثقافية وهي تتيح أن نوفق بين وجهتي النظر التحليلية العلم نفسية والعلم إجتماعية. وهذه الخطوة في البحث بدأت على يد رينيه جيرار الذي يقترح قراءة جديدة لنصوص فرويد المتعلقة بعقدة أوديب: هو يصف الرغبة عند أوديب بأنها تخلق ويحدد العلاقة الأوديبية بأنها مثلية.

فرويد في دراسته: «علم النفس الجماعي وتحليل الذات»<sup>(1)</sup>، وفي الفصل السابع المعنون: «المائلة»، كتب يقول: «يُظهر الطفل الصغير اهتماماً بالغاً بأبيه؛ إنه يريد أن يصبح ويكون كأبيه، أن يحل على كل وجه محله. هو يصنع من أبيه مثاله الأعلى، وهذه الوضعية تجاه الأب ليس لها أي جانب سلبي ولا أنثوي؛ إنها بصورة جوهرية من صفة الذكورة. وهي تتوافق جيداً مع عقدة أوديب التي تسهم في اعدادها». فرويد يصور في هذا النص، ممثلة الأب كأمر أوّلي على الإطلاق وسابق على الميل الشهواني نحو الأم.

ولكن فرويد لا يفعل أكثر من أن يوحى بالطبيعة التخيلية للغريزة الجنسية الأوديبية. وفرويد، في دراسة لاحقة بعنوان «الذات والهو»<sup>(2)</sup> يتخلى عن فكرة أسبقية ممثلة الأب: «منذ الوهلة الأولى يركز الطفل طاقته الغريزية على أمه (...). أما فيما يتعلق بالأب، فالطفل يطمئن إلى هيمنته عليه بواسطة المائلة. وهاتان الوضعتان تبقيان معاً فترة من الزمن، حتى إذا أدرك الطفل بأن الأب يشكل عقبة في وجه تحقيق رغباته، فإننا نرى ولادة «عقدة أوديب». وممثلة الأب تأخذ عندها صفة الكراهية. وتجلب الرغبة في حذف الأب والإحلال محله إلى جانب الأم».

وهكذا يكشف رينيه جيرار عن إيهام في نصوص فرويد، عن صراع بين تأويلين للعلاقة الأوديبية، بين نظرية ممثلة الأب الأولى وبين نظرية الطاقة الغريزية الموجهة نحو الأم. وإنه لمهم أن نبين صوابية النظرية الأنثروبولوجية هذه: «إن الإبن لا يمكنه أن يكون معرفة واضحة ومتميزة لأغراض والده، بما في ذلك الأم بصفتها غرضاً من أغراض الأب. ولئن اتجه الإبن نحو أغراض الأب، فذلك لأنه يسير في الأمور بالاستناد إلى النموذج الذي اتخذته لنفسه». فالمنافسة بين الأب والإبن تنتج من ممثلة الإبن لأبيه: هي تظهر لمجرد أن الإبن يتخذ لنفسه الأغراض نفسها التي يرغبها الأب، وأولها الأم.

وبالتالي فإن «المنافسة الأوديبية - حسب رأي رينيه جيرار - تستمر، ولكنها تأخذ دلالة مختلفة كلية، فهي محددة مسبقاً باختيار النموذج. هي إذن لا تحتوي على أي شيء عرضي. ولكنها أيضاً لا علاقة لها بإرادة الإغتصاب. فبكل «براءة» يتجه التلميذ نحو غرض نموذج، وبدون أية فكرة مسبقة يريد أن يحل محل الأب نفسه إلى جانب الأم. إنه يمثل إلى أوامر المحاكاة التي نقلت إليه بكل أصوات الثقافة وبالنموذج ذاته (...).

فالرغبة في قتل الأب وارتكاب المحارم لا يمكنها أن تكون فكرة من أفكار الطفل. إنها بكل وضوح فكرة الراشد. ففي الأسطورة اليونانية نجد الفكرة بأن الوحي لقن لايبوس أفكاره زمناً طويلاً قبل أن يصبح أوديب قادراً على أن يرغب أي شيء كان (...). إن فرويد يضع في الطفل قوى للتمييز تفوق بكثير تلك التي توجد عند الراشدين (...). فاعتبار الطفل الصغير جداً يملك شعوراً بالمنافسة واضحاً يشكل أمراً لا يلامس الواقع بأي حال من الأحوال (...). والعنصر الخرافي في مذهب فرويد، هو الشعور بالرغبة في قتل الأب وارتكاب المحرم الذي لم يرد فرويد أبداً العدول عنه، الأمر الذي قاده إلى الاخلال بكل منطق وبكل واقعية، في المرة الأولى من أجل أن يجعل هذا الشعور ممكناً، وفي المرة الثانية من أجل أن يلغيه متخيلاً وجود «اللاشعور - الوعاء» ونظام الكبت»<sup>(1)</sup>.

والرغبة التخلقية، بالشكل الذي وصفها فيه رينيه جيرار، تسمح بأن نفهم بطريقة أفضل تعارض هذا المستوى النفسي الذي أطلق عليه فرويد في «المعالجة» الثانية اسم «الأنا الأعلى». والواقع هو أن مماثلة النموذج في الرغبة التخلقية تسير إلى جانب المنافسة. والأنا الأعلى الفرويدي هو كذلك ذو وجهين: هو في الوقت نفسه أمر («كن كأبيك») وحظر («لا تكن مثله، فأشياء كثيرة مخصصة له، وله فقط - وبالأخص الأم»). والأنا الأعلى يظهر حسب فرويد، عقب كبت الرغبة الأوديبية. والرغبة الأوديبية لها وجهان لا يفرق بينهما: أحدهما إيجابي وهو الميل الحيوي الجنسي إلى الأم، والآخر سلبي وهو المنافسة مع الأب. والتعارض في الأنا الأعلى يبقى غامضاً في نصوص فرويد. ويعلّله رينيه جيرار بأنه التعارض الملازم للرغبة التخلقية: فم نموذج الرغبة هو أيضاً عقبة؛ وأهل الطفل الذين هم من نفس جنسه هم بالنسبة له النموذج، وفي الوقت نفسه المنافس. وفرويد الذي لم يقبل بوضوح بهذا التعارض الجوهرى في الأنا الأعلى، يقع، حسب رأي رينيه جيرار في تناقض نظري: «الأب هو في عقدة أوديب المنافس المطرود؛ فلم يعد من مجال لأن يُصنع منه نموذج يحتذى به. وبالمقابل فإن الأب في الأنا الأعلى نموذج محترم، وبذلك فليس من مجال لأن يُصنع منه منافس مطرود. فنحن إذن نحصل على منافسة بدون مماثلة سابقة (عقدة أوديب)، يتبعها مماثلة بدون منافسة (الأنا الأعلى)».

وبالإمكان أخيراً أن نرجع - حسب رينيه جيرار - إلى مأساة لسوفوكل بعنوان: «التراشينيون». وهي أقل شهرة من «أوديب الملك»، ولكنها مفيدة جداً لتوضيح موضوعنا. ففي الفصل الأخير يتلوى البطل هيراقليوس من الألم بعد أن لبس الجلباب المسمم بدم القنطورس والذي أعطته إياه زوجته لتنتقم منه بعد أن تخلى عنها ليتزوج إيول الشابة. وعندها أعطى هيراقليوس أمرين إلى ابنه هيلوس: أن يشعل ناراً متأججة ويلقيه فيها ليضع حداً لآلامه، ثم بعد موته يتزوج إيول الشابة. وهكذا فالأب أمر ابنه أن يقتل أباه وفي الوقت نفسه أن يرتكب المحرم. هذه النهاية المأساوية تهوّل أكبر تهويل التعارض الأساسي بين الرغبة التخلقية والأنا الأعلى. وينتهي رينيه جيرار مستخلصاً: «سوفوكل الذي مضى عليه خمس وعشرون قرناً يستطيع إلى الآن أن يساعدنا لكي نهز بعنف نير أسطورة من أكثر الأساطير إرباكاً هي أسطورة عقدة أوديب». والمنافسة التخلقية تظهر

بأنها أفضل من العقدة الفرويدية من ناحية أنها تبعد مع الشعور بالرغبة في قتل الأب، الضرورة المربكة للكبت واللاشعور».

إن القضية العلم نفسية والتحليلية النفسية لقصص متعددة لتتضح على ضوء هذا الوصف الأنثروبولوجي للرغبة التخيلية. فرينيه جيرار، في دراسته: «الكذبة الرومنطيقية والحقيقة القصصية»، يقرر بالاستناد إلى تحليل روايات كل من سيرفانتيس وبروست ودوستوفسكي واستيندال، الطبيعة الثلاثية للرغبة: الرغبة عند ذات من الذات تتناول كل الأغراض التي اختارها النموذج الذي تبنته الذات نفسها؛ وموضع الرغبة يتحدد بالنموذج الذي هو «وسيط الرغبة». ويخلع رينيه جيرار صفة «الرومنطيقية» على المؤلفات الأدبية التي تعكس وجود الوسيط دون أن تكشف عنه، وصفة «القصصية» على المؤلفات التي تظهر هذا الوجود بجلالة أكثر (وهذه المؤلفات الأخيرة هي موضوع دراسته).

ويدخل رينيه جيرار تمييزاً جديداً في المؤلفات القصصية: فالوساطة تسمى «خارجية» عندما تكون المسافة كبيرة جداً بين النموذج والذات بحيث يتعذر الإتصال بينهما؛ والوساطة تسمى «داخلية» عندما ينتمي كل من الذات والوسيط إلى نفس الدائرة الاجتماعية. وبطل «الوساطة الخارجية» يعلن عالياً حقيقة طبيعة رغبته ومحاكاته للنموذج المختار والمحترم (تلك هي حالة دون كيشوت عند سيرفانتيس)، بينما بطل «الوساطة الداخلية» يخفي بعناية إجلاله لنموذجه (كما هي حالة شخص جوليان سوريل في «الأحمر والأسود» عند استيندال).

ومحاكاة النموذج من قبل الذات هي في «الوساطة الداخلية» متعارضة جداً: فالنموذج هو ملهم أو وسيط رغبة الذات، وهو أيضاً العقبة الكؤود لهذه الرغبة لأنه هو بنفسه يرغب أو يملك الموضوع الذي يحدده لمنافسه. وهكذا فالنموذج الوسيط يمنع الذات من أن تشبع الرغبة التي هو نفسه أملأها عليها! فالذات تشعر إذن إزاء هذا النموذج بشعور يتعارض فيه كل من الكراهية والإجلال. والدور الذي يلعبه الوسيط كعقبة يتخذ مركز الصدارة ويخفي دور النموذج الذي يُحاكى بدقة.

«الوساطة الداخلية» هي المنتصرة في العصر الحاضر الذي تسود فيه نزعة المساواة بين الناس. فالإنسان المعاصر يتمسك بتلهف باستقلال ذاتي متوهم، إنه لا يريد أن يكون تلميذاً لأي شخص من الأشخاص. وهو يعتقد بأن أصالته هي كلية ويقتنع بأن كل رغباته تنبع من ذاتيته المحضة. وههنا يوجد التوهم الرومنطقي بصورته الأصلية. فالأشخاص عند استندال هم على درجات متفاوتة ضحايا هذا التوهم: هم مغرورون! واستندال يُظهر بوضوح دور المحاكاة في شخصية أبطاله: المغرور لا يستخرج رغباته من أعماق نفسه، بل يأخذها عن الآخر. ولكي يرغب المغرور أمراً ما، فيكفي أن نقنعه بأن هذا الأمر يرغب به شخص ذو وجهة في محيطه. والأمثلة على ذلك كثيرة في «الأحمر والأسود»: التاريخ أو الأدب يوحيان لأشخاص استندال بعواطف وبرغبات لا يشعرون بها تلقائياً (جوليان سوريل الذي اتخذ نابليون نموذجاً له، رأى في الطموح الفضيلة المثلى، ففي الوقت الذي يبدأ فيه عمله كمؤدب عند آل رينال، أخذ عن «اعترافات» روسو رغبة

الأكل على مائدة الأسباد. وماتيلد دي لامول أخذت نماذجها من تاريخ عائلتها وعاشت من جديد أسطورة الهوى المغرم الذي عرفته جدتها مارغريت دي نافار. (الخ).

الغرور يتخلل ويغير حتى الحياة الغرامية. فالقصة «الأحمر والأسود» تخلط مغامرتين غراميتين مختلفتين اختلافاً كبيراً: الأولى تتعلق بالحب الهيام، والأخرى بالحب الغرور! الحب الهيام هو عاطفة تلقائية ومستقلة ذاتياً، وتستمد من أعماق ذاتها قوة رغبته. وهذا هو الحب الذي تبديه السيدة دي رينال لجوليان سوريل. وهذا الحب هو الحب الذي يتوصل إليه أخيراً جوليان فيما يتعلق بالسيدة دي رينال. ولكن ولادة هذا الحب لا تخلو من الغرور: فبدافع الغرور قرر جوليان أن يشرع بغزو السيدة دي رينال؛ فهو جعل ذلك فرضاً يحتمه عليه طموحه، وفرض على نفسه أن يلعب دور المغوي الذي لا يُرد وفقاً لنموذج «دون جوان» التقليدي! وتلقائية السيدة دي رينال العاطفية هي التي انتهت بأن تنسيه هذا الدور الذي حمل نفسه عليه. وحب جوليان لماتيلد هو نتيجة الطموح. وهذا الطموح هو عاطفة مثلثة، تتدخل فيها محاكاة الآخر اللامعترف بها، والتي تقوم على كراهية الطبقة الشريفة. أما حب ماتيلد لجوليان، فهو دور أوحى به الجدة مارغريت دي نافار: هو دور المغرمة المولدة التي تضحي بشرفها من أجل حبها.

والبنية الثلاثية للرغبة، التي تحد «الحب الخيلاء»، تتخلل كل وجود الأشخاص عند استدال. فوراء كل رغبة يوجد دائماً مسرح رغبة أخرى، حقيقية أو مفترضة. فأي شخص كان يمكن أن يصبح نموذجاً لشخص آخر، الوسيط لرغبته، حتى دون أن يعرف الدور الذي يلعبه بالنسبة له. وعلاوة على ذلك فمن الممكن جيداً بأن يحاكي هذا «النموذج - الوسيط» الشخص الذي يحاكيه وينقل بذلك صورة عن صورة رغبته المفترضة! (فمثلاً، السيد دي رينال، في بداية الرواية، يأخذ رغبته في أن يكون له مؤدب لأولاده عن رغبة يفترضها موجودة عن منافسه فالينو). والوساطة عند ذلك هي مزدوجة أو متبادلة. وفي هذه الحالة لا نرغب كثيراً الشيء الذي لا نخشى أن يمتلكه الآخر.. هذه السيرة الثلاثية للوساطة المزدوجة أو المتبادلة تشهد النور في ميدان العمل بنفس المقدار الذي تشهده في العلاقات الغرامية. (جوليان سوريل يرغب في ماتيلد دي لامول التي يتغزل بها شبان كثيرون من كبار العائلات).

والوساطة المزدوجة أو المتبادلة يمكن أن تظهر في صورة الغنج. فالغنوجة تريد أن تجعل نفسها مرغوبة لتحفظ بقيمتها في نظر الآخر وفي نظرها بالذات؛ فهي ترى نفسها بواسطة عين الآخر وتقدر نفسها بالإستناد إلى ما تُمنح من تقدير. فهي تتقوّل وفقاً لرغبة الآخر. وفي النهاية هي ترغب ذاتها عن طريق رغبة الآخر فيها. وفي عالم الوساطة الداخلية حيث الطبيعة الثلاثية للرغبة تبقى مستترة، تظهر الماسوشية في شكلها الجذري، في شكل الماسوشية «الوجودية». فالماسوشي يتمنى ويبحث عن افشال رغبته، لأن هذا الافشال وحده يقدر على أن يكشف له عن ألوهية أصيلة، عن وسيط لا يقهر في مهاته الخاصة. والماسوشي لا يهتم إلا بالأغراض التي لا يمكن الوصول إليها والتي يمنعه من امتلاكها وسيط شرس. والإحتقار الذي يبديه له هذا الوسيط يضاعف رغبته لأنه

يؤكد له رفعة النموذج (حب جوليان سوريل ماتيلد دي لامول تحركه الضعة التي يشعر بها لكونه ليس سوى أحد العوام الذين يحتقرهم الأرستقراطيون). وفي النهاية لا يحب الماسوشي ولا يرغب إلا موجوداً لا يمكن الوصول إليه إطلاقاً؛ فهو يختار نموذجاً ليس أبداً وفقاً للإعجاب الذي يثيره فيه هذا النموذج، بل وفقاً للإحتقار أو حتى للإشمزاز الذي هو نفسه يثيره فيه. فرينيه جيرار يقول: «الماسوشية تكشف بشكل كلي التناقض الذي عليه تقوم الرغبة الميتافيزيقية، فالموله يبحث عن المؤله عبر العقبة التي لا يمكن اجتيازها (...). وكل ضحايا الرغبة الميتافيزيقية تغبط أولوهية الوسيط، وهي من أجل هذه الألوهية تقبل أو تبحث عن العار والضعة والألم. وعلى التعاسة أن تكشف لهؤلاء الضحايا الموجود الذي تظهر لهم محاكاته بأنها الأكثر قدرة لإنقاذهم من وضعهم البائس»<sup>(4)</sup>، والماسوشية يمكن بذلك أن توصف، على المستوى الوجودي، بأنها إنمساخ للرغبة الانطولوجية، للإرادة الأساسية في الوجود وفي تنمية هذا الوجود. والماسوشي الجنسي ليس سوى انعكاس لهذه الماسوشية الوجودية.

ووفقاً للمنظور المتعلق بالرغبة التخلقية أو المثلية، تنكشف السادية الوجودية في وظيفتها الأنطولوجية: فالسادي ليس أبداً كالماسوشي ذاتاً ترغب، هو يريد أن يلعب دور النموذج الوسيط. «السادي يبذل جهده ليحاكي الإله في مهمة المضطهد، ويحمل شريكه على أن يلعب دور المضطهد»<sup>(5)</sup>.

والسلوك السادي - الماسوشي هو متكرر عن أشخاص استندال. فجوليان سوريل يشعر بالفرح في أن يُذل نساء من مرتبة اجتماعية أرقى من مرتبته وفي أن ينغص عليهن حياتهن بشكل لا يكون لهن فيه خلاص لا تخلو من أن تساورها وسوسة الشعور بالإثم ومن أن يتردد في التكفير عن إثمه. التحليل النفسي الفرويدي يعمل التعارض السادي - الماسوشي مجدية الأنا الأعلى والشعور بالعداء. أما المضمون الأنثروبولوجي للوساطة المزدوجة أو المتبادلة فإنه - كما يعرضه رينيه جيرار - يضع السادية - الماسوشية في المستوى الوجودي ويكشف عن مدلولها الميتافيزيقي.

ويظهر النفاق، حسب مفهوم الرغبة الثلاثية والوساطة المزدوجة كممارسة ترويضية حقيقية. فالمنافق يكبت، فيما يعود إلى رغبته، كل مامن شأنه أن يُرى، كل ما هو اندفاع نحو موضوعه؛ إنه يخفي رغباته، لأن هذه الأخيرة موجودة أيضاً عند شريكه الذي هو خصمه. والنفاق هو القاعدة في عالم كل واحد فيه يحاكي الآخر. فجوليان سوريل هو المنافق في غاية النفاق: هو يمارس الترويض النفسي لمجرد الرغبة. وإلى النفاق يعود نجاحه الاجتماعي وفوزه في غرامياته. وعندما يستسلم البطل الستندالي للصدق فإنه يصبح عبداً لحبه. وتلك هي حالة ماتيلد دي لامول في نهاية القصة. (استندال يطبق تقنية قصصية غاية في الأهمية: فهو يعرض أشخاصاً دائماً من خلال نظرة ولي الأمر. وهو بطريقة ما يضع نفسه في وجدان الشخص الذي هو سيد نفسه. فنحن نرى بأعينه ماتيلد حرة. غير مبالية ومتعالية. وعندما تصبح هذه الأخيرة عبدة حبها، فإننا لا نعود نراها إلا من الخارج، من خلال أعين جوليان وقد صار هو السيد. والتأرجح هو ذاته فيما يتعلق بجوليان).

إن القصة تجمع بين الأحمر والأسود جنباً إلى جنب وتقارن بينهما. فعالم الأحمر، وهو عالم توجيه حكايات أو أحلام ماتيلد دي لامول. هو عالم الأرستقراطية الإقطاعية حيث العنف والأهواء تجري كما تشاء. وعالم الأسود هو عالم الكهنوت الذي مهمته الهيمنة على رغباته. فلئن اختار البطل جوليان سوريل الميدان الديني، فليس ذلك بانتهازية حقيرة، بل نبوع من البطولة في النفاق الذي هو بالنسبة له سيطرة على الأهواء.

والمنظور الأنثروبولوجي للرغبة التخلقية الذي بدأه رينيه جيرار، يتيح أيضاً بأن نعالج على ضوء جديد البعد الاجتماعي التاريخي لقصة استندال. فالبطل جوليان سوريل ألقى، قبل تنفيذ الحكم النهائي عليه، مرافعة ضد الظلم الاجتماعي لا تعرف الشفقة. وهذا الخطاب الأخير يمكنه أن يحدو بالقارئ إلى أن يضع في المرتبة الأولى القضية السياسية التاريخية لصراع الطبقات. ولكن قراءة من النوع الماركسي ستبالغ جداً من الحد من أبعاد هذا المؤلف. ويجب من جهة أخرى أن نأخذ بعين الاعتبار العنصر الرئيسي في التخيّل: فالمهنة اللامعة لرجل الشعب جوليان سوريل مدينة لمساندة الأرستقراطيين، للسيدة دي رينال وبالأخص للشريف دي لامول. فحسب رأي رينيه جيرار، « يجب أن لا نبحت عن عبرة متحيزة في مؤلف استندال الرائع. فمن أجل أن نفهم هذا الروائي الذي لا ينفك عن الكلام في السياسة، يجب أولاً أن تفلت من أنواع الفكر السياسي ». ومن أجل ذلك، يرجع رينيه جيرار إلى مفهوم طبقة الأشراف الذي يعرضه استندال في رواية هي سيرة ذاتية بعنوان: « حياة هنري برولار ». فاستندال يميز هنا بين الأشراف بالنفس والأشراف بالطبقة. فالشريف هو الكائن الذي يأخذ رغباته من ذاته ويحاول إشباعها بجملة. هو، بكلمة واحدة، الكائن المؤله. « وهكذا » فالشرف هو عن استندال يعادل « الوله ». ويضاد « الغرور ». والشرف بالطبقة هو بالعكس ظاهرة اجتماعية تاريخية. ففي إيطاليا في عهد النهضة التي يصفها مؤلف آخر لإستندال: « الحوليات الإيطالية »، كان يوجد وفاق نسبي بين التنظيم الاجتماعي والتدرج الطبيعي للناس. وسرعان ما حصل الإنشقاق وتآزم تدريجياً مع انحطاط طبقة الأشراف. فالطبقة الشريفة استسلمت للغرور باتخاذها إلى جانب الملوك مركز الجليس من أجل أن تحافظ على امتيازاتها. فحياة الأشراف في فرساي ما كانت سوى محاكاة دائمة للملك. فهذا الأخير كان النموذج المثالي، وسيط كل الرغبات. الملك المطلق، « الملك الشمس »<sup>(6)</sup>، كان يبقى بعيداً عن رعيته مسافة لا يمكن اجتيازها. و« الوساطة »، حسب تحديد رينيه جيرار التي ذكرت سابقاً، كانت عندها « خارجية ». فالنموذج كان لا يمكن الحصول عليه وكان شبه متسام. غير أن ثورة سنة 1789 التي دكت الملكية القائمة على الحق الإلهي. أنزلت في الوقت نفسه الملك عن مرتبته كنموذج مطلق. فحل محل الوساطة الخارجية نظام من الوساطة الداخلية صار فيه الملك نفسه جزءاً منه (الملك لويس فيليب الأول - 1830 - 1848 - كان يضارب بالأسهم كالبورجوازيين، صانعاً بذلك من نفسه - وأي أفلاس هو هذا الصنيع! - المنافس لأفراد رعيته). والانتقال من « الوساطة الخارجية » إلى الوساطة الداخلية كوّن المرحلة النهائية لإنحطاط الأشراف: طبقة الأشراف حطمت نفسها حين طمحت إلى ما كانت البورجوازية تحسدها إليها: الامتيازات الأشرافية. ولقد اعتقد الأشراف في عهد إعادة

الملكية، بأنهم يدافعون عن طبقتهم حين طالبوا بامتيازاتهم القديمة على حساب البورجوازيين والشعب. ولكنهم أتموا بهذا العمل الإنهيار الداخلي لهذه الطبقة المضمحلة بالعنف الخارجي: إنهم انخفضوا إلى مستوى العوام حين رغبوا بالمال على غرار البورجوازيين ذوي الروح التجارية الجشعة. والحسد الذي كان في نفس البورجوازيين فيما يتعلق بامتيازات الأشراف غالى في القيمة التي أعطائها لتفاهات فخرية وحرك عندهم الرغبة لاستعادة هذه الامتيازات الوهمية. فالشرفاء والبورجوازيون صاروا يرغبون نفس الشيء وب نفس الشكل. والطبقتان اللتان كانتا سابقاً متناسقتين بكل دقة، أخذت كل منهما تحاكي الأخرى وفقاً لسيرورة «الوساطة المزدوجة أو المتبادلة» التي وصفها رينيه جيرار خير وصف. وهكذا فإن «الوساطة المزدوجة هي قالب تدوب فيه ببطء الفروقات بين الطبقات والأفراد».

والأرستقراطي لكونه لم يعد متميزاً، فإنه ذهب يبحث عن مستوى آخر يتميز فيه: مستوى الأخلاق والعادات الحسنة. ففي ظل الملكية الدستورية، صارت الأرستقراطية الطبقة الأكثر جدارة والأكثر فضيلة في الأمة، فالأرستقراطي كان يريد أن يثبت للبورجوازي بأنه يستحق امتيازاته، ومن أجل ذلك كان يزايد على الأخلاق البورجوازية. الطبقة الأرستقراطية صارت بورجوازية عن طريق التنافس مع البورجوازية. وهكذا كان الأشراف يقلدون البورجوازيين في الوقت الذي هم فيه نموذج بالنسبة لهم. ويقول رينيه جيرار بأنه في العالم القصصي عند استندال «تنتصر الوساطة المزدوجة في كل مكان؛ فكل أوجه الباليه الاجتماعية هي تكرار لا طائل تحته». والانتقال المذهل يحدث فجأة في نهاية القصة: السيد دي رينال يترك الحزب الملكي «المتطرف» وينزل في لائحة الليبراليين الانتخابية. ويتسم جوليان سوريل عندما يعلم التغير السياسي المفاجيء عند سيده القديم: فهو يعلم بأن هذا الأخير يبحث فقط عن منافسة البورجوازي فالينو. وفالينو بمحاكاته للأشراف، أصبح مرشح «المتطرفين»، وهم مؤيدو الملكية المطلقة التي كانت في «النظام القديم». وعندها يتجه السيد دي رينال، الذي هو عضو أصيل في طبقة الأشراف، نحو الليبراليين ويأخذ على عاتقه الدفاع عن مصالح البورجوازيين. فالتنافس لا يستطيع أن يثبتاً معاً في نفس الحزب السياسي. وانتقال الأرستقراطي السيد دي رينال إلى الليبرالية البورجوازية هو متناقض مع انتقال البورجوازي فالينو إلى الملكية المتطرفة والشريفة. هذه هي هيمنة الوساطة المزدوجة أو المتبادلة وهذا هو انتصار «الغرور».

إن استندال يتصرف بشكل لا يكون فيه قارئه مخدوعاً بما يصرح به جهراً أشخاصه، فالفن عند القصصي هو أن يكشف خلسة سيرورة المحاكاة المتبادلة و«الغرور». وبالإمكان أن نقول مكررين عبارات رينيه جيرار، بأن استندال يعارض «الكذبة الرومنطيقية» «بالحقيقة القصصية».

وهكذا فإن المنظور الأنثروبولوجي المجدد كلياً والذي بدأه رينيه جيرار يسمح في الوقت نفسه بأن نعمق ونوحد تحليلات أدبية ذات اتجاهات مختلفة: اتجاهات تحليلية نفسية وعلم اجتماعية تاريخية.

★ ★ ★



## الحواشي

- (1) انظر بهذا الخصوص : Essais de psychanalyse, 2e partie, coll. Idées.
- (2) نفس المرجع السابق.
- (3) انظر : La Violence et le Sacré, chap. VII: «Freud et le complexe d'Edipe».
- (4) انظر : R. GIRARD, Mensonge romantique et vérité romanesque, chap. VIII: Masochisme et sadisme.
- (5) نفس المرجع السابق.
- (6) هو « لويس الرابع عشر », وننقل هنا حرفياً العبارة الفرنسية : Roi-Soleil

## المصطلحات

Psychologique	علم نفسي :
Imago	صورة (أخيلة) :
Mimétique	تخلّقي :
Identification	مائلة :
Libido	طاقة غريزية :
Inconscient receptacle	اللاشعور الوعاء :
La thématique	القضية :
Masochisme	ماسوشية :
œdipien	أوديبى :
Sadisme	سادية :
Sociologique	علم اجتماعي :
Social	اجتماعي :
Passion	هوى ، وله :
Collectif	جماعي :
Le ça	الهُو :
Amour-Vanité	« الحب الخيلاء » :
Vanité	الغرور :
Schéma	مرسومة :
Objet	غرض :
Modèle	نموذج :
Perspective	منظور :

---

## مراجع البحث

- GIRARD René, Mensonge romantique et vérité romanesque, des choses cachées depuis la fondation du monde, La violence et le sacré, éd. Grasset, 1978, 1979, 1980.
- FREUD Sigmund, Essais de Psychanalyse, 2ème partie: Psychologie Collective et analyse du moi. «(en particulier 7e : L'identification). 3ème partie: «Le moi et le ça» (en particulier 3e : Le moi, le sur-moi et l'Idéal du Moi»).
- CLANCIER Anne, Psychanalyse et critique littéraire. éd. Privat, Toulouse, 1973.
- BELLEMEN-NOEL Jean, Psychanalyse et littérature, P.U.F., Coll. Que sais-je?, 1978.
- ROHEIM Géza, Psychanalyse et anthropologie, éd, Gallimard, Coll. Connaissance de l'inconscient.